التربية الاجتماعية في عهد الاسلام (٥)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد ، فلقد علم علماء التاريخ ما كان في العالم القديم من توارث حق الوصاية على النوع البشري في تصوراته وأحكامه العقلية ، واعتقاداته الدينية وكانت الفوضى في الأمة العربية سائدة ، والأمن في بلادهم قبل الاسلام مختلاً ، الفرد يفرغ جهده في الفرد ؛ والجماعة يشتد عدوانها على الجماعة ؛ ويعدون ذلك كله أثر نخوة أصابوا به المجد من معنى الحرية . أرأيت كيف قال شاعرهم يفتخر بما يأخذه من حمية الجاهلية :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي وهو يظلم

أما قول رسول الله ﷺ كما في الصحيح : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فغير مراد منه المعنى الذي قصده الشاعر من الاغتصاب مطلقاً حقاً أو باطلاً بل كشف النبي ﷺ عن مراده بنفسه حين قالوا له : هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ . فقال : « تأخذ فوق يده » . والمعنى تحجزه وتقيم صدره عن الظلم ، ولا جرم أن وقايته من العقوبات نوع من النصر والاعانة ثم ان هذه الجملة : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) أول من تكلم بها جندب بن العنبر ، وأراد بها ما اعتاد من الحمية الجاهلية فأقر النبي الجملة ، ولكن نقلها عن موردها الاول ، وحملها على معنى اجتماعي يجعلها في جملة الارشادات الاسلامية .

نأخذ الآن ببيان القواعد الاساسية لهذه التربية الاجتماعية وهي نوعان :

(٥) محاضرة القاها الأستاذ محمد بهجة البيطار في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ايار سنة ١٩٢٣ .

حقوق وواجبات ، فحرية العقل ، وحرية النفس ، وحرية العلم ؛ هي من حقوق الانسان التي أعلنها الاسلام ، والواجبات الشخصية والواجبات المنزلية (العائلية) والواجبات الاجتماعية ، من تعاليم الاسلام . واني أتكلم على هذين النوعين من الحقوق والواجبات بقدر ما يتسع له وقت المحاضرة وإن كان كل واحد منها يحتاج إلى محاضرة مستقلة .

حرية العقل

منيت هذه المزية الكبرى في الانسان — مزية العقل — بمن يسيطر عليها ؛ ويمنعها من تأدية وظائفها حسبما استعدت له من أقدم الأيام ، حتى جاء الاسلام بحرية العقل واطلاق العنان له لينظر في هذا الكون نظر اعتبار ؛ ويستكنه ما أودع في خزائنه من الحقائق والأسرار قال عز من قائل : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار ، وقد دلت الآية على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد فتحوا للناس أبواب البحث والنظر في العلوم الكونية ، وقد وجه القرآن الكريم أنظارنا إلى آثاره تعالى في الكون تذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا الزاماً لاعتقاد خاص بالخليقة ، كما قال بعض الحكماء ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل . وانظر كيف يقرع بالدليل : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) .

فالاسلام في هذه الدعوة إلى وحدانية الله لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفكري — وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي — فلا يدهشك بخارق العادة ؛ ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ؛ ولا يخرس اللسان بقارعة سماوية ولا يقطع حركة الفكر بصيحة إلهية .

حرية العلم

ان نسبة العلم إلى القوة العاقلة ؛ كنسبة الغذاء الى القوة الجسدية . وقد سطر التاريخ عداء العالم القديم للعلم .. جاء في دائرة معارف لاروس : (أما هم — يعني الأقدمين — فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم) . وقد جاء الاسلام وحرر العلم من القيود التي كان يرسف بها ؛ وأعلن أنه يجب أن يكون محبوباً مطلوباً ، لا عدواً مطروداً ، فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم بأسرها ، والمعارف بجملتها ، قال تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) . وقال : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » قال حكيم :

« إلام أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين ؟ فتح عمرو بن العاص مصر ، واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والاسلام في طلوع فجره ، وتفتح نوره ، فكأن من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ؛ وكان يميل إلى العلم بطبيعته ؛ فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكراتهم ؛ ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة ؛ فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته ، وأطبائه ومناطقته . يقول كثير من مؤرخي الأوربيين ومؤرخي المسلمين : إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما صلة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد الفلاسفة الغربيين : إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ مايسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة

والرأي العالي ، فبمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين من استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ولم تتغير بالعربية إلا بعد عشرات السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع . يقول الفيلسوف غوستاف لوبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين . ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب من اليونانيين وغيرهم — وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المقابر ، أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن ، لا حظّ الانسانية منها سوى النظر إليها — صارت عند العرب حياة الآداب وغذاء الأرواح ، وروح الثروة وقوام الصنعة ومهاراً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أعدت له وليس في الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل في اخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر ، وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم — إنما هو للمسلمين وآدابهم ، ومعارفهم التي حملوها إليهم ، وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم .

حرية النفس

من سبر أغوار الأمم قبل الاسلام : ولاسيما الامة العربية في عصر الجاهلية عرف كيف كان استبداد القوي بالضعيف وهضمه لحقوقه . كان الوضيع منهم يضطر إلى الانتساب إلى غير ابيه والاستنجاد بغير معشره وذويه حفظاً لحقه وابقاءً على شرفه . حتى جاء الاسلام يدك معالم الاستبداد

ويهدم صروح الاستعباد وينتصف للضعيف من القوي ، وينتصر للمظلوم من الظالم ؛ ويبين أن الناس خلقوا للتعارف والتعاون على الخير والاشتراك في الأعمال النافعة وأن لافضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى قال عز من قائل : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم) فأسقط جل شأنه بهذه الآية الكريمة سيطرة أي نفس على غيرها من النفوس ، إلا مايستحصل به حق أو يقام به حد ؛ وانمحى به كل فضل يدعى بأصالة محتد أو وفرة غنى أوانتساب إلى قبيلة أو لقب علمي أو ديني لا يفيد صاحبه الناس بعلمه أو دينه .

لم يكن أمر الاسلام قاصراً على نصرة المظلوم والأخذ بيد الضعيف فحسب ، بل سعى كل السعي في تخليص الرقيق من أسر العبودية والانتقال به إلى فضاء الحرية كما قال أحد الباحثين .

إن العتق من أفخر مايفتخر به الاسلام ، فان شريعتنا المحمدية قد سعت في تقويض دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه . ولكن كيف العمل ؟ هل كان من الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ماوجد الاجتماع الانساني وتوالت عليه الأيام والأعوام والشهور والدهور ، ألا إن ذلك يجر وراءه بلا شك انقلاباً عظيماً في نظام الاجتماع وفتنة كبيرة في نفوس الأمم والأقوام ، فلهذا جاءت شريعة الاسلام من طريق آخر تزول أمامه الصعوبات وتذلل العقبات بدلاً من تهييج العقول وإثارة الخواطر والأفكار بالغاء الاسترقاق مرة واحدة ، فخوطب المسلمون بأن يتقربوا إلى الله باعتاق العبيد المساكين في ظروف كثيرة وأحوال متنوعة وحث النبي ﷺ كثيراً على السعي في نوال هذه الغاية الجليلة ولذلك جاءت قواعد العتق في غاية السعة ونهاية اليسر ، بحيث يتسنى دائماً للرقيق أن يجد فيها طريقاً يساعده على الخلاص من الاستعباد إذا طلب ذلك ، بل ولو لم يطلبه (وقال أحد علماء الافرنج) أما الاسترقاق فلا حاجة لنا باطالة القول على المبادئ الحقة الصحيحة التي قررها القرآن الشريف بشأنه فان

فك الرقبة هو من أفضل الأعمال لدى المولى عز وجل ، وأجل القربات لطالب الغفران عن ارتكاب السيئات . والدول الاسلامية هي أول من ينكر ويحرم هذه التجارة القبيحة الشنعاء وقال العلامة نوستاف لوبون في كتابه تمدن العرب : إن افظعة الرق إذا ذكرت أمام الأوربي الذي اعتاد تلاوة الروايات الأمريكية المؤلفة منذ نحو ٣٠ سنة من الزمان ورد على خاطره استعمال أولئك المثقلين بالسلاسل المكبلين بالأغلال المسوقين بضرب السياط الذين لا يكاد يكون غذاؤهم كافياً لسد رمقهم وليس لهم من المساكن إلا حابس مظلم .

الواجبات الشخصية والمنزلية

مما ورد في شأن إصلاح الرجل نفسه وأسرته معاً ، هذا الخطاب الكريم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وإنما تكون هذه الوقاية من النار بتصحيح الاعتقاد ، وتطهير النفس من الأوهام ، وتهذيبها بالعلم الصحيح وتزكيتها بالعمل الصالح ، وحفظها من التلف بمراعاة قانون حفظ الصحة في الحياة ذلك بأن الأعمال لا تقوم إلا بها ، ولا تبنى إلا عليها ، ومن هنا قالوا : حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان .

ومما يجب على رب الأسرة اصلاح شأنها من جهة التربية والتعليم والآية الكريمة في شأن الأزواج (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) جامعة للأمرين أي التربية والتعليم على طريق الايجاز ، بل لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة والحديثة قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ، ولم تعين هذه الحقوق والواجبات ، لأنها تتبع ، العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات والشرائع والعادات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة ، اذ لابد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولابد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والانفاق ، مالبس لها ،

وهذا هو المراد من الآيه الكريمة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » لكن هذه الرئاسة ، رئاسة شورية لا استبداديه ، ودليلها من القرآن قوله تعالى : في شأن الزوجين وطفلها الرضيع وفطامه ، « فان أرادا فصالاً عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليها » فهذا نص صريح في إقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة .

وقد أجمع الباحثون في سنن العمران ورقي الانسان على أن التربية القويمة والتعليم الصحيح هما الوسيله العظمى لارتقاء الأمة في معارج الحضارة ، وبلوغها ما تطمح اليه من الآمال الكبار ، لذلك كان من أهم واجبات الأمة التي تجعل هذا الهدف الأسمى ، والسعادة العظمى نصب عينيها أن تكل أمر أبنائها وتعليمهم إلى من يطبعون في فطرة الناشئ أصول الفضائل وآداب الشريعة ، ويهذبون عواطفه ويرقون شعوره ، أما إذا وسد أمر التعليم الى غير ناصح ولا أمين ألم بمزاج الأمة مايضعفه ، وينمي جراثيم الداء فيه فتزداد الأمة مرضاً ، حتى تكون حرضاً ، أو تكون من الهالكين .

التربية الدينية عماد الفضائل ، والمعلمون خلفاء الرسل في تعليمهم وأخلاقهم « كاد المعلم أن يكون رسولا » فمن شأنهم أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم ؛ إذ هم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس ، والمثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم ، لامن الكتب التي يدرسونها فحسب ، ويجب أن لايرى الطلاب عليهم مآخذ يتمسكون بها ، إذ بهم يقتدى ، وبهديهم يهتدى ، وليذكروا قول المصلح الأعظم ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيمة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيمة . »

الواجبات الاجتماعية

العالم منقسم في نظر الاسلام من حيث الواجبات الاجتماعية إلى أربعة

أقسام : « الأول » المسلمون بعضهم مع بعض « الثاني » المسلمون مع أبناء الملل السماوية الذين يشتركون معهم في القانون المدني والوطني . (الثالث) الأقوام والأمم والحكومات التي بينها وبين الحكومة الاسلامية عهد أو ميثاق واتفاق على الروابط العامة بين الحكومتين . « الرابع » الأقوام المصارحون بالعداء للحكومة الاسلامية المعبر عنهم بالمحاربين ولنتكلم الآن على الواجبات الاجتماعية لكل من هذه الأقسام الاربعة .

المسلمون

بعث النبي ﷺ وأهل الأرض يومئذ كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه ، أو مشير إلى غيره ، ضلال في حيرة ، وخابطون في فتنة قد استهوتهم الاهواء واستزلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل .

أقول فلما جاء الاسلام هداهم إلى توحيد الله تعالى ، وجمع كلمتهم وألف بين قلوبهم ونهاهم عن التفرق فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ووصفهم بقوله : « رحماء بينهم » وأمرهم بقوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » فتمت للأمة العربية بهذه التعاليم السماوية ، وحدة بعد فرقة وكثرة بعد قلة وقوة بعد ضعف ، وكان لهم بعد ذلك العداء المستمر ، والقتال المستحر وحدة عربية اسلامية لم يسبق لها نظير في التاريخ .

ووضعت الأحكام في الاسلام على شكل التكافؤ ، وأديرت سياستها على قطب المساواة فلا فضل فيها لشريف على وضيع ، ولا امتياز لملك على سوقي والعقوبة الموضوعة على صعلوك الأمة هي المحمولة على سيدها ، بدون فارق ولو ادعى أمير المؤمنين على أدنى الناس درهماً واحداً لم يقض له باستحقاقه الا بشهادة عادلة وهذا المعنى عام في جملة الشريعة وتفاصيلها .

ومن أدلة المساواة قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) أخذت هذه الآية بيد المستضعفين من الناس وأوقفتهم في مرتق أولي القوة جنباً إلى جنب ، إذ المعروف في الاخوة اتحادهم في النسب ، وهو يقتضي عدم تفاضلهم وتمايزهم في الحقوق ، فالآية وإن دلت على التواد والتراحم من جهة لاتخلو من الدلالة على المساواة من جهة ثانية .

المسلمون وأهل الأديان السماوية

قرر الاسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم والفسحة في اجراء أحكامها بينهم وإقامة شعائرها بارادة مستقلة ، فلا سبيل لأولي الأمر إلى تعطيل شعيرة من شعائرهم ، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة ، الا ان تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا ، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة ، قال تعالى : « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين » وابقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية ، وباب من أبواب العدالة السامية . الأصل في كل مملكة أن حق الولاية الشرعية يكون في يدها دون سواها ، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع من تقلهم أرض الوطن سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم أو الأموال أو الأحوال الشخصية ، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية ، وأصبح كل إنسان حراً في أحواله الدينية وما يتبعها .

تنظر الى أبواب الشريعة تبصر في جملتها أحكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين ، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن الاسلام لم يقتصر على اباحة معاملتهم بمعاوضة ، بل أجاز المسلم أن يهب جائزاً من ماله أو يوقفه أو يوصي لغير المسلم ، أمر الاسلام بالعدل والاحسان في معاملتهم والرفق بضعيفهم ، وسدّ خلة فقيرهم وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم .

وحكى ابن حزم في مراتب الاجماع أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب الى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج اقتالهم بالسلاح ، ونموت دون ذلك صوناً لهم .

معاملة المعاهدين أو غير المحاربين

واجبات المعاهدين علينا الوفاء لهم بالعهد ، وعدم نقضه ، إلا إذا هم بدأوا بذلك ، قال تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين » .

إن وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم . وتحريم الخيانة فيها سراً وجهراً ، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، من أحكام الاسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة محكمة ، لاتدع مجالاً لاباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند امكان نقضه بالحيلة ، منها قوله تعالى : (١٦ : ٩١) « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها » الآية . جمع بين الامر بالايفاء بها ، والنهي عن نقضها ، ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله (١٦ : ٩٢) « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها » ومنها أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر (٢ : ١٧٧) « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر اخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من غيرهم كما قال : « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » ٨ : ٧٢ » فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا ؟

الاسلام يبيح البر والاقساط إلى من يناصبنا العداء ، ولم يطلع منا بأرض ولا احتلال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين »

يجب أن يقصد بمعاهدات الصلح والسلام بين الأمم الاصلاح والعدل

والمساواة، فتبنى على الاخلاص دون الدخل — أي الغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه — أي لا لأجل أمة هي أربى نفعاً، وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى وهو واقع في بعض معاهدات هذا الزمان، ومن عجائب القرآن أن كشفه ونهى عنه بقوله « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ان تكون أمة هي أربى من أمة، والمعنى: لا تكونوا في نقض عهودكم، والعود الى تجديدها، كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة ابرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث (بالكسر) ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم، لأجل أن تكون أمة هي أربى وأزيد رجالاً، وأكثر ربحاً ومالا، وأقوى أسنة ونصالا، من أمة أخرى. (من المنار بتصرف واختصار) وهو يشبه اتفاق الذئب مع الأغنام، أو الأوصياء الجائرين على الضعاف الأيتام، وهو مما لا يجيزه الاسلام ولذلك شرع القتال والدفاع على حد قول القائل:

ولست بعطراب إذا شبت الوغى ولكن إذا ما أدعَ للأمر أركب

المحاربون

الحروب التي كانت في صدر الاسلام تتوقف معرفتها — أهي حرب دفاع أم حرب عدوان — على معرفة أسبابها والغرض منها، وهذا متوقف على درس طبيعة الاسلام، وسياسته العالية، ومقاصده السامية وقد قلت في تفسير قوله تعالى « قاتلوا وقتلوا » كلمة من محاضرة، نشرتها مجلة التربية والتعليم أو المعلمون والمعلمات، جاء فيها: القتل: منه ما هو حسم لمادة الفساد، وضمان لحياة الأفراد، كقتل القصاص « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » ومنه ما هو غرامي أو جنائي كقتل الانتحار، والتردي من فوق الجبال، والقاء النفس في أعماق البحار، وكقتل الأخذ بالثار أو الاعتداء، وحوادثه في الصحف اليومية. وفي المسارح العمومية؛

ودور السينما الصامتة والناطقة، لا تحصى كثرة، أما فعل هذه المشاهد في الأخلاق فكفعل الجراثيم في الأجساد، أو أشد؛ ومن أنواع القتال ما هو طمع وجشع، أو استعباد واستذلال. وأما الاقتتال الجاهلي قبل الاسلام، فهو حروب أهلية داخلية فيه اضعاف للأمة، وتفريق لوحدتها، وهدّ لقواها، ومنهم من كان يصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات، أو اليأس من الحياة كقول طرفة في معلقته:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وأين هذه الأهداف القاصرة أو الخاسرة، من الهدف الاسلامي الأسمى في القتال، وهو الجهاد لاعلاء كلمة الله، أي لنصرة الحق على الباطل، والفضيلة على الرذيلة، والتوحيد على الوثنية، ويؤيد ذلك قوله تعالى خطاباً للمؤمنين: « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة، فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » فالثبات من أسباب النصر والظفر، وذكر الله قوة معنوية تثبت القلوب من جهة، وتبعث فيها الرحمة، من ناحية أخرى، فالذاكر لله لا يقاتل ابتداء ولا اعتداء، ولا يقاتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى، ومن ألقى السلاح وكف عن الحرب، وإذاً فالقتال مشروع في الاسلام للدفاع عن النفس والأوطان، ولحماية الارشاد والدعوة، لا لاقامة الدين بالسيف والقوة كما يظن الغر الجاهل، أو يقول العدو المتحامل، وذكر الله هو الذي جعل العرب أعدل الأمم وأرحمهم، كما قال فيلسوف التاريخ كوستاف لوبون: « ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب » قال بعض الاعلام: من تصفح القرآن وجده يتضمن تعاليم روحية، وتعاليم زمنية، منها ما يمارس وقت السلم، ومنها ما يراعى حين الحرب، ولكن ترتيب هذه التعاليم في القرآن ليس على نسق ترتيب مواد القوانين الوضعية، وإنما روعي فيه أسلوب آخر، ولاعتبارات منظور فيه إلى كيفية طروء الحوادث، وتجدد الوقائع،

تشريعية أخرى ، فاذا لاحظنا أن للدين الاسلامي وجهة حربية مادية حكمنا بالضرورة أن لها طبيعة تلائم هذه الحالة مثل تقوية الرابطة بين المسلمين ، وحثهم على الاتكاش في مقاومة عدوهم ، وعدم الائتمان للمخالفين وإساءة الظن بهم ، والتعزز عليهم أحياناً في نظير ذلك مما تستدعيه حالة المحاجزة والمناجزة ، وكما كان لهذه الحالة المادية طبيعتها ، كان أيضاً للحالة الروحية طبيعتها ولحالة السلم طبيعتها من مثل التواد والتراحم والتناصف وحسن المعاملة ، ولين العشرة وتبادل الثقة بين المسلمين وغيرهم ، لأجل أن تصان المصالح القومية وتجتلب المنافع العمومية .

« الاسلام علم أتباعه في غير وقت الحرب ، أن يكونوا ملائكة خير وطهر وإخلاص ، وفضيلة ، وأمانة ، حسبك أن تكون كلمة السلام شعارهم الخاص فيحيي بعضهم بعضاً بها كلما اجتمعوا أو تفرقوا أو تلاقوا ، وما ذاك إلا لأجل أن يكون للسلام المنزلة العليا في بـــلادهم ، والتأثير العميق في نفوسهم .

وبعد تقرير هذه القواعد واسنادها إلى أصولها ، يجب أن نلقي نظرة عامة في حالة التربية الاجتماعية في هذا العصر وقبله بعصور ، فعندها يتضح للناظر أن ضعف هذه التربية ناشئ عن عدم تطبيق هذه القواعد والأصول ، ويحسن بنا في هذا المقام أن نختم الكلام بكلمة لحكيم رباني يوجه بها هذه الامة العربية الى هدفها الاسمى ، وسعادتها العظمى فيقول :

لا أطيل عليك بحثاً ، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكي أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل ، أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول .

حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ماجمع كلمتها وأنهض همم آحادها ، ولحم مابين أفرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها — إنما

هو دين قويم الأصول محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الحسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من اجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية ، فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ، ونبذها ظهرياً ، وحدوث بدع ليست منها في شيء أقامها المتقدمون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين ، وعما أتى لاجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ ، فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والاخذ باحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظة الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وإيقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ؛ وبيع الارواح لشرف الامة ، لان جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة إليه ، وفي زواياها نور خفي من محبة ، فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الارواح لأقرب وقت ، فاذا قاموا لشؤونهم ، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحساً ، ولا يكسبها إلا تعسا .

هل تعجب أيها (السامع) من قولي : ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنمي للامم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل

الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية ؟ إن عجبت فان عجبي من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات حتى إذا جاءها الدين فوحدها ، وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوّم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وقد شهد لنا بذلك فيلسوف من أعلم مؤرخي الاوربيين ، وأصدقهم لهجة وهو (غوستاف لوبون) حيث قال : ما وجد التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب وقد نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك باصول دينها » .